مرآة النفوس البشرية

قصة جديدة بقلم فارس زرزور

لقد اعتدنا ان نرى الجماجم البشرية في المتاحف والقبور المنبوشة وخزانات الاطباء، وان نشاهد صورها في منعطفات الطرق وعلى خزانات الكهرباء. اما ان نراها محمولة على الصدور، فذلك منظر شاذ غريب ومرعب. ولعل اول جمجمة رأيتها في حياتي كانت في خزانة التطبيقات في مدرسة خالد بن الوليد. وأعترف بانني حملتها بيدي ودرست اقسامها جميعاً، وادخلت اصبعي في محجرها والصقت عيني مكان الاذن لأتتبع بالدقة ثقوب اجهزة السمع. لقد فعلت كل ذلك دون ان يخطر في نفسي شعور بالخوف او التهيب. ولم افكر في ان جمجمتي قد تحمل يوماً بيد اطفال صغار يدرسون اقسامها ويحكمون على ان صاحبها كان متوسط الذكاء. لقد حملت تلك الجمجمة كما احمل قلم رصاص، دون ان اتساءل على الاقل: ترى هل هي لذكر ام انثى، وذلك لانني كنت طفلاً. اما الآن وكلما تذكرت ذلك تعتريني هزة ترعد كياني، فاثني على شجاعتي التي كانت فائقة. واستطيع ان اقول الآن بكثير من الجرأة ان للجماجم البشرية فلسفة خاصة وتعبيرات مخيفة ساخرة وانها تنطق وتعبر عن شيء. وبالاختصار يمكنني ان اجزم بان الجمجمة البشرية هي مرآة نرى فيها انفسنا على حقيقتها الصادقة بل نرى بمكبر دقيق وحساس قلب ضميرنا تنخره ملايين الديدان الصغيرة.

ان جمجمة ميت تريك نفس انسان.. اليس ذلك رائعاً؟

لقد حدث ذلك ذات يوم من ايام الربيع وكان المصطافون في الربوة، جالسين وسائرين، يملأون افواههم بالصياح والطعام وينتشرون زاحفين كالنمل في الثقوب وعلى المنحدرات وبين الشجر، متغلغلين في جميع الاتجاهات كيوم النشور. وحل المساء فانسابت كتلهم تتحرك نحو الطريق العام. ومر «باص» كبير. وقبل ان يتوقف تسلقه الركاب من الابواب والنوافذ واخذت النساء تتدافع بالارجل والمناكب. وبكى الاطفال المساكين المحمولون على السواعد. وتأرجحت رؤوسهم يمنة ويسرة ثم اعتصرت بين صدور وظهور. وتصايحت الامهات وراحت الافواه تقذف حممها من الشتائم والسباب. واوقعت امرأة صرة طعامها عند مدخل السيارة ثم انحنت لتلم الزيتون وفضلات الخبز فشكلت حاجزاً يصعب اختراقه. وبسرعة، ودون ان تدري، وجدت نفسها تداس بالنعال الخشنة واللطيفة على السواء. وكان صياحها يضيع وسط الضجة فلم يلتفت اليها او الى صياحها احد، وكانت هي وحدها التي تحس بانها تدور بين حجري مطحنة كبيرة. وامتلأت مقاعد السيارة ورصف الممر بالناس وتكدسوا في كل شبر من الارض وبين المقاعد. وفوق اكتاف السائق تسلق طفل اضاعته امه فنسي ان يبكي. ولم يبق مكان لحشرة صغيرة وانتهى الامر.

وعلى بعد خطوتين من السيارة اجتمعت كومة من الناس تنعش المرأة المطحونة وكانت نائمة ونصف عارية. ولكن السائق ابى ان يتحرك راجياً ان ينزل الواقفون ويظل الجالسون وحدهم، خوفاً من المخالفة الجديدة. وقال بحزن ان الشرطي الاشقر يتربص له بدراجته وراء الشجرة على الطريق وبيده دفتره وصفارته. ثم لعن هذه المهنة بحماسة شديدة وبصق بين قدميه بتذمر وثورة بالغتين. ونظر الواقفون بعضهم الى بعض، ولوى رجل رقبته وتظاهر بالصمم، وتطلع آخر من النافذة بلا ادنى اهتمام، واقسمت امرأة بصوت خشن، وكانت محصورة بين رجلين، بان لا تنزل مهما كلفها الامر، وغمغمت بغيظ شديد كلمات مبهمة.

وظلت السيارة واقفة لا تتزحزح، وصاح شاب من الخلف: «انزلوا يا شباب لنركب بالباص القادم»، فصاح آخر من الامام: «انزل حضرتك بالاول»، فتململ الخلفي بضيق وهو يكاد يختنق. وتسلل رجل شهم من الباب الأمامي بعد ان ازاح من طريقه امرأة سمينة كالفيل. ثم تبعه آخر.. وكان معظم الواقفين من الرجال طبعاً. وخلا الممر من الناس ما عدا المرأة السمينة فقد احتجت في باديء الأمر، ثم صاحت تطلب الشجار. وقبل ان تتحرك قوائمها الغليظة القت على المقاعد نظرة اخيرة ثم شخرت من انفها العظيم متجهة نحو الباب وهي تجر وراءها سلة كبيرة نصف فارغة. وتنفس الجالسون الصعداء، واعطى المعاون الايعاز للسائق بالمسير.

ولكن هذا لم يتحرك بل راح ينظر الى الباب بجمود. ثم مد يده يساعد رجلاً على الصعود، وصعد رجل يسند على صدره حملاً خفيفاً وبسيطاً للغاية: كان يسند على صدره لوحاً خشبياً

مربوطاً الى نطاق من الكاوتشوك ومعلقاً في رقبته . وعلى هذا اللوح الخشبي تكومت كتلة بشرية صغيرة لا يتجاوز حجمها حجم القطة . كانت هذه الكتلة عبارة عن جمجمة وساقين واشياء اخرى : كانت الساقان متعامدتين تنتهي كل منهما برجل صغيرة مكورة واصابع دقيقة متقلصة غير كاملة النمو ، وفوق الساقين اعتلت جمجمة تبدو غير ثابتة تماماً ، إذ انها تهتز الى الامام والى الوراء وكأنها تكاد تسقط ، ويفصل الجمجمة عن الساقين قضيب رفيع وقصير من العظم والجلد ومن هذا القضيب البشري تهدل كمّان قصيران باليان ينتهي احدهما ببراعم صغيرة تشبه اصابع الاطفال غير انها متداخلة فيما بينها بحيث يصعب عدها ، وينتهي الكم الآخر ببراعم اخرى اطول من الاولى ممسكة بتفاحة ذابلة . وكانت الجمجمة صماء لا تتحرك الا من الاهتزازات . اما هي نفسها فلم تكن لها قدرة على الحركة ، وقد غرز في جبهتها انف دقيق ذو فوهة واحدة وعلى جانبيها نبتت اذنان مفرطتان في الصغر ، وتحت الانف كان يوجد فم عادي معلق وفوقه عينان ثاقبتان كبيرتان تتجولان كميزان الزئبق . ولعل هاتين العينين هما كل ما تبقى في هذه الكتلة البشرية من معالم الحياة .

ووقف الرجل في مقدمة السيارة دون ان يكترث باحد وراح بعينيه يفتش عن مكان شاغر . لم يكن يهدد احداً بمسدسه على الاطلاق ، ولكن كان كمن يهدد الراكبين باهوال مرعبة مخيفة . وتعلقت اعين الركاب بهذا الشيء المحمول ثم استقر في اعماقها فزع رهيب . وجمدت الأعين ، ولكن الوجوه بدأ يرتسم على صفحاتها صور بشعة وظلال سوداء قاتمة . وسرت في الابدان رعدة عنيفة كأنما اتصل بينها سلك كهربائي ذو تيار كبير .

ولم يعد باستطاعة احد من الراكبين ان يتحرك ، فقد جمدت اجسادهم وحبست انفاسهم فغدوا كالتماثيل . غير ان وجوههم وحدها اخذت تتقلص وتحيا من جديد . واخذت وجوههم تحيا الحياة التي يعيشونها في ذواتهم . وراح كل منهم يتذكر نفسه ويستعرض جرائمه وآثامه . لم تكن شفاههم تتحرك ، ولكن تقاطيع وجوههم اخذت تعكس الصور وتتحدث بلسان اخرس .

كانت عظام الساقين بارزة بيضاء وكأنها لسان حي يطل من جمجمة ميت . ولولا تلك الجلدة الرقيقة المثقوبة مكان العينين والتي تستر ذلك الهيكل لما قال انسان ان هذا مخلوق حي .

والواقع ان هذا الانسان كان حياً وحياً الى درجة مؤثرة . كان حياً ولكن ليس كبقية الاحياء الذين يسيرون في الشوارع بل كان من نوع آخر . كان هذا الحي يسكن في نفس كل انسان بل كان هو الانسان الداخلي لكل حي .

ولعل تلك الجلدة الشاحبة هي وحدها التي منعت الاسنان من البروز وإلا لما بقي احد في السيارة إلا وقذف بنفسه من النافذة على قارعة الطريق . وظن بعضهم ان هذا الشيء المحمول ربما كان من نوع تلك الاعلانات التحذيرية التي يكتب عليها (احذر خطر الموت) ، غير انه في هذه المرة اعلان حي متحرك .

كان الرجل حامل الاعلان يقف جانب السائق شامخ الانف بارز الصدر طويل القامة يرتدي لباس الحمالين . ويبدو على سيمائه الاعتزاز والفخر وكأنه بطل قلد وسام الشرف .

واخلى للبطل مكان في الصف الخلفي ، فسار بين صفوف المقاعد بخطى وئيدة يلتمس مكانه . ثم انحنى ونزع النطاق عن كاهله ووضع حمله على الارض وبين قدميه . كل هذا والحمل لا يتحرك . ولكنه عندما احس انه صار على الارض وانه اصبح في مكان لا يرى فيه سائر الناس من عل وانه اضحى بين الاقدام بدرت منه حركة مفاجئة غيرت معالم الوجوه وحركت زناد الألسنة المبكمة . فقد اهتزت الجمجمة من تلقاء نفسها ورفعت عينيها الى الاعلى واخذت تتأمل الوجوه .

وقال رجل يجلس الى أقصى اليمين : «إلهي غفرانك ..» وغطى وجهه بيديه العريضتين . وتمتم عشرة رجال معاً بكلمات غامضة المعالم ثم مدوا ايديهم الى جيوبهم ليدخنوا السيكارات . وانتحبت امرأة في اقصى اليسار ثم اغمي عليها . ونهضت عجوز من مكانها لتهرب ثم سقطت من تلقاء نفسها في مقعدها ذاهلة خرساء ، وقد ارتسم على وجهها شبح السنين الغوابر . وبينما كان الراكبون يعترفون باعمالهم ويمثلونها في وجوههم خير تمثيل ارتفع الكم ذو التفاحة الى الفم واخذت التفاحة تفقد شيئاً فشيئاً من اقسامها . فأطل طفل من وراء كتف امه واخذ يتمعن ببراءة ودهشة هذا المخلوق الذي لا يشبهه ولكنه يقضم مثله التفاحة . وفجأة صاح الطفل : « ماما .. انظري انه يأكل » فضمت الام طفلها الى صدرها وعصرته بقوة لتسد حلقه ، ولكنه ناضل وتسلق مرة ثانية كتف امه فأشاحت بوجهها وقد تقلصت زوايا فمها واعتراها شحوب شديد المرارة .

كانت السيارة تسير ببطء شديد وفي داخلها تمثّل رواية انسانية . كأن السائق نفسه كان يخشى وقوع كارثة . والى جانب الحمال كان يجلس شاب في مقتبل عمره قرأ قليلاً من الكتب وحصل على بعض الشهادات فأخذ يتفرس في وجه المخلوق العجيب ويفكر : « لماذا يا إلهي .. خلقت هذه الانقاض التي تمد الروح الحية بالشعور بالحرمان والنقص والعاهة ؟ وغرست هاتين العينين لترى العالم فلا تعودا بغير الحسرة والالم ؟ وفتحت هاتين الاذنين لتسمعا الاغاني والضجيج فلا تفهما شيئاً ؟ وهذا الفم الذي لا ينطق بشيء . ان هذه الحواس جميعاً تنقل الى الروح السجينة اخباراً مدهشة ، غير ان هذه الروح تنطوي على نفسها لتجمع جمجمة وعظمتين وتتألم .. »

واستبدّ بالشاب الفضول واحس بأنه اكتشف شيئاً استعصى على الجميع اكتشافه ، فتملكته جرأة منقطعة النظير فأراد ان يتفلسف . قال للحمال :

— كيف يعيش هذا الانسان ؟

فحدجه الحمال بعينين ساخرتين واراد ألا يجيب . غير انه انعم في محدثه النظر . وخطر له اخيراً ان يشبع فضوله فقال برزانة القادة العظام :

— انه يعيش كما تعيش انت .

— انه يسمعنا ويرانا ، أليس كذلك ؟ .

— كما تسمع انت وترى .

— ولكني افرح واتألم واستطيع ان اعبر عن ذلك . .

— وهو ايضاً يتألم ويفرح .

— ترى هل تعصف بجمجمته زوابع الالم كلما احس بالنقص ؟

— من يدري ؟ انني لم اعش في رأسه .

— والآن عندما صاح الطفل ؟

— ألم تنظر الى وجهه . ؟

— لقد نظرت فلم أر شيئاً على الاطلاق .

— وعلى كل حال انك لم تنظر جيداً .

— مسكين .. اين وجدته .. ؟

قال الحمال وقد نفد صبره ..

— انه اخي .. انه ابن امي .

وانهى الحمال حديثه بأن اخرج من جيبه زجاجة فيها سائل ابيض وافرغها في جوفه دفعة واحدة .

وفجأة سمعت صفرة حادة فتوقفت السيارة . وصعد الشرطي اليها :

— اعطني اوراقك بسرعة ..

— لماذا يا افندي ؟

— انك تركب بين المقاعد . ؟

— اين . ؟ انا لم اركب احداً .

— اتكذب ايضاً . ؟ هناك رجل . .

قالها بصيحة وانفعال :

— ولكن يا افندي انه ليس رجلاً .. انه ..

— افرضه كلباً فأنت مخالف . ماذا تريد ايضاً ؟ ..

— انني مستعد ان اعطيك اوراقي ولكن اريدك ان تتأكد من انني مخالف . .

وارتسمت على سحنة الشرطي امارات غيظ شديد ، فخطا الى آخر السيارة بسرعة . وفجأة جمد في مكانه لحظة . ثم قذف بنفسه من الباب وتوارى بين الاشجار .

وبعد لحظة اطلق صفيراً حاداً جارحاً كنصول السكاكين .

دمشق — فارس زرزور

دار الثقافة — بيروت

لمؤسسها خليل طعمه واخوانه

التزام توزيع منشورات دار المعارف بمصر — وسائر كتب دور النشر في العالم العربي

توزيع مجلات وصحف عربية

طباعة ونشر جميع الكتب المطلوبة

بناية الغراوي — السور — بيروت

تليفون ٣٥/٦٧ ص.ب ٥٤٣